(٢١) داود الطائي[١]

ذكر أبي سليمان داود الطائي رحمه الله:

كان رحمه الله من أكابر الطائفة، وسيدَ القوم، وفي الورع كاملاً، وله حظٌّ وافرٌ من العلوم، ولا سيما الفقه ودقائقه.

وتلمذ على أبي حنيفة رضي الله عنه عشرين سنة، وصحب الفُضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم رحمهما الله، وشيخُه في الطريقة حبيب الراعي.

وكان الخوفُ من أول الأمر إلى الآخر غالبًا، ويَتنفَّرُ من الخلق دائمًا.

وسبب توبته أنه سمع في مرورِهِ نائحةً تنوح وتقول[٢]:

بأيِّ خدّيك تبدّى البِلى ... وأيُّ عينيك إذًا سالا

أقول: قيل: وكان سببُ زهده أنّه كان يمرُّ ببغداد يومًا، فنحّاه المطرِّقون بين يدي حميد الطوسي، فالتفت داود، فرأى حميدًا، فقال داود: أفٌّ للدنيا سبقك بها حميد. فلزمَ البيتَ، وأخذ في الجهد والعبادة.

وقيل: سببه أنه كان يُجالسُ أبا حنيفة رضي الله عنه، فقال أبو حنيفة يومًا:

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٦٧، التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٢٤٠، التاريخ الصغير ٢/ ١٣٦، المعارف ٥١٥، مشاهير علماء الأمصار ١٦٨، الثقات ٦/ ٢٨٢، حلية الأولياء ٧/ ٣٣٥، الرسالة القشيرية ٥١، تاريخ بغداد ٨/ ٣٤٧، الأنساب ٨/ ٣٠٦، مناقب الأبرار ١٧٥، صفة الصفوة ٣/ ١٣١، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٧٥، تهذيب الكمال ٨/ ٤٥٥، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٩، العبر ١/ ٢٣٨، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٢، ميزان الاعتدال ٢/ ٢١، مرآة الجنان ١/ ٣٥٠، الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٩٥، طبقات الأولياء ٢٠٠، نفحات الأنس ٥٩، تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٣، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٦، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٢٧٢، شذرات الذهب ١/ ٢٥٦.

(٢) ذكر البيت مع الخبر القشيري في رسالته ٥١، وابنُ قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣٠٢.

يا أبا سليمان، أمّا الآدابُ فقد أحكمناها. فقال له داود: فأيُّ شيءٍ بقي؟ قال: العمل. قال داود: فنازعتني نفسي إلى العزلة، فقلتُ لنفسي: جالسيهم ولا تتكلَّمي في مسألةٍ، فجالستُهم سنةً، وكانتِ المسألةُ تمرُّ بي، وأنا إلى الكلامِ فيها أشدُّ نزاعًا من العطشان إلى الماء الزُّلال، ولا أتكلَّمُ به، ثم صارَ أمرُ حالي إلى ما صار، وقال: بصبري في سنةٍ حصلَ لي عملُ ثلاثين سنةً[١]، والله أعلم.

ثم وصل إلى حبيب الراعي، وفتوحُهُ في الطريقة حصلَتْ منه، ودخل الطريقَ برجوليَّةٍ تامَّة، ورمى جميعَ كتبِهِ في الماء، واختار الخلوةَ والعزلة، وقطع الرجاءَ بالكلّية عن الخلق.

وكان له عشرون دينارًا وصلَ إليه من ميراثٍ، فتقوَّتَ به عشرين سنة، حتى قال له بعضُ المشايخ: من الطريقة الإيثار لا الاختيار. قال: ليس هذا بمالٍ يُعدُّ ذخيرةً، ولكن هو سببٌ لفراغ قلبي، وأتقوَّتُ به إلى يوم موتي.

وكان رحمه الله مَشغولاً بعمل الآخرة، ولم يسترح من العملِ إلى اليوم الآخر من عمره.

وكان ينقعُ الخبزَ بالماء، ويأكلُ ويقول: إلى أن يُمضغَ الخبزُ يُمكنُ أن يقرأ خمسين آيةً من كلام الله تعالى، فلا ينبغي أن يُضيَّعَ العُمُرُ في أكلِ الخبز ومضغه.

قال أبو بكر بن عياش[٢]: دخلتُ حجرةَ داود، ألفيته يبكي، وبيده كسرةُ خبزٍ، قلت: وما بك يا داود؟ قال: أُريد أن آكل هذه[٣] الكُسيرة من الخبز، ولا أدري أنه حلالٌ أم حرام؟

وقال آخر: دخلتُ حجرةَ داود، رأيتُ جرَّةً مملوءةً من الماء، ضربت عليها الشمسُ، قلت: لِمَ لا ترفعها، ولا تحولُها من مكانها؟ قال: وضعتها هناك،

---

(١) الرسالة القشيرية ٥١.

(٢) في (ب): أبو بكر العياش.

(٣) في (ب): يبكي وبيده الكُسيرة. وما بينهما مستدرك من (أ).

وما كانتِ الشمسُ حينئذٍ تضرب على ذلك المكان، وأَستحيي من الله أن أمشي إليها الآن، وأرفعَها للتنعُّمِ ولذَّةِ النفس.

نقل أنه كان له دارٌ مشتملٌ على بيوتٍ كثيرة، وهو يسكُنُ في بيتٍ منها، فإذا يخربُ يَنتقلُ إلى بيتٍ آخر، قيل له: لِمَ لا تعمّرُ البيتَ الذي يخرب؟ قال: لي مع الله تعالى أن لا أعمّرَ في الدنيا قطُّ.

نقل أنه انهدمَتْ البيوتُ كلُّها، وتحوَّلَ آخرَ عمره في الدهليز، ويسكنُ هناك، جاء إليه شخص وقال: اخرجْ من هذا الدهليز؛ فإنَّ سقفَهُ خرابٌ وسينهدمُ. قال: إنّي مذ عشرين سنة ساكنٌ فيه، وما نظرتُ إلى سقفه. حتى أنَّ ذلك الدهليزَ انهدمَ في الليلة التي ماتَ فيها داود رحمه الله.

قيل له: لِمَ لا تختلطُ مع الناس؟ قال: إن خالطتُ مع أصغرَ منّي فهو لا يُعاونني على أمرِ الدِّين، ومع أكبر فهو عسى أن لا يقولَ لي ما يرىَ فيَّ من العيوب، لأجل هذا تركتُ صحبةَ الخلق.

قيل له: لِمَ لا تتزوّج؟ قال: لأنّني لا يُمكنني أن أخدعَ مؤمنةً، لأنّي إذا تزوّجتُ بها تقلّدتُ بأن أكونَ أَقومُ بأمورِها وأشغالِها دينًا ودنيا، وإذا لم أقدر على القيام بها فقد خدعتُها، وهذا لا يجوز.

قيل له: لِمَ لا تسرّح لحيتك بالمشط؟ قال: متى فرغتُ من الأشغال لأُسرِّحَ اللحية؟

نقل أنه صعدَ السطح في ليلةٍ قمراء، ويتفكَّرُ في عجائب ملكوتِ السماء، ويبكي إلى أن غُشي عليه[1]، وسقط على سطحِ الجار، وانتبه صاحبُ البيت من المهابة، وصعدَ السطحَ عاريًا، ومعه سيفٌ، فلمّا رأى داودَ على تلك الحالة، رجعَ، ولبسَ الثوب، وأغمدَ السيف، وجاء إليه، وأمسك بيده، وقال: من جاءَ بك إلى هنا؟ قال: لا أعلم أني كيف وصلت إلى هنا.

نقل أنه رحمه الله كان يستوحشُ من مُخالطة الناس، حتى رأتْهُ أمُّه يومًا

(١) في (ب): إلى أن غشي على عقله.

قاعدًا في الشمس، والعرقُ يتقاطر منه، بل يجري، قالت: يا روحي، حرٌّ شديدٌ وأنت صائم، فإنْ تحوَّلْتَ إلى الفيء فهو خير. قال: يا أمّي، أَستحيي من الله تعالى أن أخطوَ خطوةً من أجل نفسي، والحالُ أنّي عادمٌ لقوَّةِ المشي. قالت: ما هذا الكلام؟ قال: يا أُمّي، كنتُ أرى في بغداد أمورًا لا تُوافِقُ الشرع، ولم أقدرْ على نهي المُنكر، سألتُ الله تعالى أن يأخذَ منّي قوَّةَ المشي؛ لأصيرَ مَعذورًا في ترك الجماعة، ولا أَطلع من البيت، ولا أرى المنكر، والآن لا أقدرُ على المشي مدّة ستة عشر سنة.

نقل أنه رحمه الله كان دائمَ الحُزن، ويقول في الليل: إلهي، همُّكَ قد عطَّلَ عليَّ الهموم، وحال بيني وبين الرقاد.

قال فقير: دخلتُ على داود، فوجدتُهُ ضاحكًا، تعجَّبْتُ منه، قلت: يا أبا سليمان، من أين هذا الفرح؟ قال: سقاني في السَّحَرِ شرابًا يُسمّى شرابَ الأُنس، واليومَ لي يومُ العيد والطرب.

نقل أنه كان يأكلُ الخبزَ، فمرَّ عليه نصرانيٌّ، وأعطاه داود كُسيرةً من خبزِه، فأكلَ وحصلَ له في تلك الليلة مع أهله قربانٌ، وحملتِ المرأةُ بمعروف الكرخي، ووُجِدَ من تلك النطفة.

قال أبو يزيد الواسطي[١]: التقيتُ بداود، واستوصيتُهُ. قال: اكتفِ من هذه الدنيا بالسلامةِ.

واستوصاه آخر، قال: اجتهدْ للآخرة، واعملْ لها على قدرِ مقامك فيها، وبقدرِ ما تَحتاجُ إليه منها.

واستوصاه آخر، قال: الأموات ينتظرونَكَ، فاستعدَّ للموت.

وقال: مَنْ يؤخِّرُ التوبةَ والطاعةَ مثَلُهُ كمثلِ شخصٍ يصطادُ[٢] ولا ينتفع بصيده؛ بل ينتفعُ[٣] به غيره.

---

(١) المطبوع الفارسي، والترجمة العربية المطبوعة صفحة ٤٦٤: أبو ربيع الواسطي.

(٢) في (ب): شخص سطاط.

(٣) في (أ): بل لينتفع به غيره.

وقال لشخص: إن أردتَ السلامةَ، فسلّمْ على الدنيا تسليمَ الوداع، وإنْ أرَدْتَ الكرامة فكبِّرْ على الآخرة بالترك. يعني اتركِ الدنيا والآخرة جميعًا لتصل إلى الله تعالى.

قال المعروف: ما رأيتُ أحدًا تكون الدنيا حقيرًا في عينه مثل داود، فإنه لم يكن للدنيا ولا لأهلِ الدنيا عنده مقدارُ مثقالِ ذرة[١] حتى إذا كان يرى أحدًا من أهل الدنيا يَشتكي من الظلمة، وكان مُتنفِّرًا من قواعدهم ورسومهم بحيث إذا كان يغسل قميصه يقول: أصادف قلبي متغيِّرًا، لكن يحبُّ الفقراء ويكرمهم.

نقل أنَّ الخليفة كان يعتقدُهُ، ولا يجدُ إليه طريقًا، وكتب له مثالاً ليُدرّسَ الفقهاء، وجاء إليه الوزير بالمثال، وعنده فقيرٌ منكسر، فأعرضَ عن الوزير، وتوجَّه إلى ذلك الفقير، وأخذ المثال من وراء الظهرِ، ولم يلتفت إلى الوزير، ورمى المثال، وقال للوزير: قل للخليفة: أنا أعملُ بما أمرني الله تعالى، فاتركْ أنت الفضولَ، وكان صاحبَ مروءة.

قال الجُنيد رحمه الله: حجمَهُ الحجّام، فأعطاه دينارًا، قال الحجّام: هذا إسراف. قال: ليس بعابدٍ من لا مُروءةَ له، إذ ورد في الخبر: «لا دين لمن لا مروءة له»[٢].

نقل أنه دخلَ إليه بعضُهم، وجعل ينظرُ إليه، فقال: أما علمتَ أنَّهم كانوا يكرهون فضولَ [النظر، كما كانوا يكرهون فضول] الكلام.

نقل أن أبا يوسف القاضي ومحمد بن الحسن رحمهما الله إذا كانا يختلفان في مسألةٍ يرفعانِ المسألةَ على داود، وهو يفصلُ بينهما؛ ولكن كان يتوجَّهُ إلى محمد، ويُعرضُ عن أبي يوسف رضي الله عنه، فإن كان الحقُّ في جانب محمد، يقول: الحقُّ ما يَرسمُهُ محمد، وإن كان في جانب أبي يوسف، يقول:

---

(١) في (أ): مقدارًا في عينيه، حتى إذا.

(٢) الخبر من قول داود نفسه، انظر حلية الأولياء ٧/ ٣٥٤، وتاريخ بغداد ٨/ ٣٥٠. وقوله: إذ ورد.. ليس في (أ).

الكلام هو هذا، ولم يذكرْه، حتى قيل له: كلاهما من العلماءِ الكبار، لِمَ تعزّزُ أحدَهما دون الآخر، ولا تنظرُ إلى وجهه أيضًا؟ قال: لأنَّ محمدَ بن الحسن دخلَ المدرسةَ، واشتغل بالعلم من النعمة والجاه، وجعلَ العلمَ سببًا لعزَّةِ دينه، وأمّا أبو يوسف فإنه اشتغلَ بالعلم من الذلّةِ والمسكنة، وجعلَ العلمَ رأسَ ماله في دنياه، وسببًا للعزِّ والجاه فيها، فكيف يكونُ أبو يوسف مثلاً لمحمدٍ، وأيضًا ضُرب أستاذُنا أبو حنيفة رضي الله عنه بالمقرعةِ، ولم يقبلِ القضاءَ، وقبلَهُ أبو يوسف، ومن لم يسلكْ طريقَ شيخه، وخالفه، فأنا لا أتكلم معه

نقل أن هارونَ الرشيد قال لأبي يوسف، والتمس منه أن يذهبَ به إلى داود الطائي ليتشرَّفَ بزيارته، فجاء إلى بابه، ولم يجدْ إليه سبيلاً، فاستشفعَ بأمّه، فشفعت، وما كان يقبلُ، ويقول: مالي وصحبة أهل الدنيا والظلمة؟! حتى قالت أمُّهُ: بحقِّي عليك ألا تأذنُ له في الدخول. قال: إلهي، أنت أَمرتني بالإحسان إلى الوالدة وإرضائها، وإلاّ ما كانَ لي شغلٌ مع هؤلاء. فأذن لهم في الدخول عليه، فدخلوا، وجلسوا، وهو افتتحَ بالنصيحة والوعظ، وشرع هارون يبكي، ولمّا أرادَ الرجوعَ حطَّ عنده صرَّةً من الذهب، وقال: هذا حلالٌ، أرجو منك أن تقبلَها. فلم يقبلْ. وقال: بعتُ بيتًا من تركة أبي، وأُنفقُ الثمنَ عليَّ، وليس لي حاجةٌ إلى مالك، وقد سألت الله تعالى أن يقبضَ روحي إذا تمَّ ثمنُ البيت؛ لئلا أحتاجَ، وأنا أرجو أن يَصيرَ دُعائي مُستجابًا. فرجع هارون، وسأل أبو يوسف مِنْ وكيل خرجه: كم قد بقيَ من ثمن البيت؟ قال: عشرةُ دراهم، ونفقتُهُ كلَّ يومٍ دانقٌ. وكان أبو يوسف يحاسبُ ذلك، حتى أنه أسند ظهرَهُ إلى المحراب يومًا، وقال: اليوم توفّي داود، تفحّصوا. فكان كذلك، قيل: بم أدركتَ؟ قال: حسبتُ نفقتَهُ، وعلمت أنَّها تمَّتِ اليومَ، ولا شكَّ أنَّه كان مُستجابَ الدعاء.

سألوا عن أمّه حالَ وفاته، قالت: كان يُصلّي طولَ الليل، ففي آخره سجدَ ولم يرفعْ رأسه من السجود، قلت: يا ولدي، وقت الصلاة. فلم يُجبْ، فالتفتُّ إليه، فإذا هو ميت.

وقيل: إنه كان في ذلك الدهليز الخراب في الحرِّ الشديد، واضعًا لبنةً تحت رأسه، ويقرأ القرآن، وهو في النزع، فقيل له: نذهبُ بك إلى الصحراء؟ قال: أَستحيي من الله تعالى أن أضعَ على الأرضِ قدمًا لحظَّ نفسي، ولم يكن للنفسِ عليَّ يدٌ وسلطنةٌ إلى اليوم، والآن أولى أن لا يكونَ لها عليَّ سلطنةٌ واستيلاء، وفي تلك الليلة تُوفّي إلى رحمة الله تعالى، وكان قد أوصى أن يُدفنَ خلفَ جدارٍ لئلا يمرَّ أحدٌ تلقاء وجهه، فامتثلوا وصيته.

نقل أنه سُمِعَ صوتٌ في تلك الليلة: يقال يا أهلَ الأرض، داودُ وصلَ إلى الحقِّ، والحقُّ عنه راضٍ.

رآه شخصٌ في المنام أنه يَطيرُ في الهواء، ويقول: الآن خلصتُ من السجنِ. انتبه الشخص وجاء إليه ليحكيه الرؤيا، فوجده ميتًا.

اللهم، إنّا نسألُكَ بحرمةِ أنبيائك وأوليائك وأصفيائك أن لا تحرمَنَا من مصاحبتِهم ومقاربتهم في اليوم الآخر، إنك كريمٌ رحيم، وأن ترزقنا سلوكَ طريقهم في الدنيا، وتُدرجنا في صحبتهم في العقبى، إنّك مُجيبُ الدعوات، ووليُّ الحسنات.

* * *